

نظام الإسلام في بناء الأسرة

للاستاذ محمود ضيغم واعظ القاهرة

يحرص كل شعب كريم على أن تكون حياته مرتكزة على أمتن الدعائم ، وأقوى الأسس ، وأفضل المبادئ ، وأشرف المقاصد والغايات ، وأن يعيش موفور الكرامة ، غلى المنزلة ، عزيز الجانب ، يرفرف عليه علم السيادة والقوة ، وتزدهر فيه العلوم والمعارف ، وتتوطد فيه أركان العمران ، وتسمو فيه مكانة الفضائل النفسية والتربية الدينية ، وينتشر العدل بين ربوعه ويتم التعاون بين أفرادهِ . وليس من سبيل الى تحقيق تلك الغايات النبيلة ، والحياة الكريمة والاهداف السامية إلا باصلاح الأسرة وحياتها بسياج من التربية الدينية الفاضلة وتدعيمها بحصانة قوية من الخلق الكريم ، وصيانتها من تسرب عوامل الضعف والانحلال اليها ، فالأسرة نواة الأمة والمجتمع ومزلتها من الأمة منزلة القلب من الجسد . فان صلحت الأسرة قويت الأمة وسعدت ، وإن فسدت تهدم صدر الأمة وأسرع اليها الفساد وآل أمرها الى ذل وانحطاط وزوال .

من أجل ذلك كانت عناية الاسلام باصلاح الأسرة — ماديا وأديبا — عناية عظيمة لا تتجاوز الحقيقة إذا قلت أنها في الصدارة من مقاصده الاجتماعية ، وأغراضه الاصلاحية ، ومبادئه العمرانية ، يتجلى ذلك في حرصه الشريف على أن يختار الرجل شريكة حياته ورعاية منزلته ، وسيدة بيته ، وهرية أولاده مثلا طيبا في جلال الخلق وقوة الدين ، وأتمودجا رفيعا للعبقة والطهارة ، والزربية الصالحة . فهأهى ذى السنة النبوية الكريمة تضع لنا أرقى التعاليم ، وأسمى الارشادات باصلاح الأسرة وبنائها على أحسن النظم وأقواها . يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاثا لنا على مراعاة الدين والخلق في الزوجة (... فاطفر بذات الدين تربت يداك) وياصرنا صلى الله عليه وسلم أن نختار بيوتا كريمة نصاهرها تكون خالية من الأمراض الخلقية والأمراض الجسمانية " تزوجوا في الخير الصالح فان العرق دساس " ويحذرننا من الاندفاع وراء جمال نسا في بيثة فاسدة وأسرة ذنيئة " إياكم وخضراء الدمن قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله قال المرأة الحسناء في المنيب السوء " .

ما أسعد الأسرة التي تبنى على حسن اختيار امرأة فاضلة كاملة ، وما أعظم نعمة الرجل بها . حيث يكون دينها هو الحارس عليها ، وخلقها الفاضل هو المسيطر على تصرفاتها ، إنها ترأب ربها في جمالها وحسبها ونسبها ، وترأبهِ في مال زوجها وفي تربية أولادها وفي جميع شؤون بيت الزوجية وتجعل البيت منبئا للفضائل ومدرسة للسعادة والهناء . قل بعض علماء الاجتماع (أن أحقر المنازل إذا تولت رياسته امرأة مدبرة باشة . كان ملؤة الراحة والهناء والسعادة) كان فيه أشرف العواصف العالمية ، كان عزيزا لدى الرجل لما يستلزمه من

دواعي السرور ؛ كان ملاذا للقلب وملجأ من عواصف الحياة ، كان خير مكان للراحة من عناء الأشغال ، ومتاع الحياة كان في الشدة مسليا ، وفي الرخاء نخرا ، وفي كل حال نعيما فالمثلزل الصالح إذن خير معاهد التربية لا للشباب وحده بل للكهل أيضا ، وفيه يتعلم الشاب والكهل البشاشة والتصبر وضبط النفس . وتترك روح الحياة ومعنى الواجب .

وكما حرص الاسلام على حسن اختيار راعية بيت الزوجية حرص على أن يكون الزوج مؤسسا على الحسب الطاهر المتبادل بين الزوجين ، والرغبة الصادقة في هذا الارتباط المقدس لتوافر مقاصد الزواج الاسامية من دوام الألفة والرحمة والمودة وتبادل العواطف الكريمة واطمئنان كل واحد منهما للآخر وسكونه اليه وثقته به ” ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورمة “ .

من أجل ذلك أباح الإسلام للرجل أن يرى خطيبته وينظر اليها ” إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها إذا كان إنما ينظر اليها لخطبتها “ وأعطى المرأة الحرية الكاملة في اختيار زوجها وشرىك حياتها ورضاها به .الم يمكن هذا الاختيار شيئا تعبر به أمرتها . وحرم على الآباء والأولياء الاستبداد بالبنات وإكراههن على تزوج بمن لم يرغبن فيه . محاربة للعادات الجاهلية الأولى وحرصا على تبادل المحبة والألفة بين الزوجين . وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ” التيب أحق بنفسها من وليها “ والبكر تستأذن في نفسها “ وقد روى أن رجلا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته الشيب فكهرت ذلك فأتت الرسول فبطل زواجها وروى أيضا أن فتاة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن أبي زوجني من أخيه ليرفع بي خبيثته بفعل النبي الأمر اليها . فقالت تلك الفتاة قد أجزت ما صنع أبي . ولكن أردت أن أعم النساء أنه ليس أبي الآباء من شيء . تعنى أنه ليس لهم إكراههن على التزوج بمن لا يرضينه .

ولم يفت الإسلام أن بحث الرجل على حسن معاملة زوجته ومعاشرتها في ظلال التقدير والوفاء والاحترام واعطائها كل ما لها من حقوق وواجبات . وفي ذلك يقول الله تعالى : ” وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا “

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم ” خيركم خيركم للنساء “ ، ” ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهنهن إلا لئيم “ وتأكيدا لهذا الحق أتاح الإسلام للمرأة أن تطلب فراقها من زوجها إذا أساء اليها في المعاملة أو ساء بها حقاً من حقوقها وأباح لها أيضا أن تمل في عقد زواجها ما تشاء من الحقوق التي ترادها ضمناً لحاضرها ومستقبلها . وفي الوقت نفسه ألزمها بواجبات تؤديها نحو زوجها وأولادها وبيتها ” ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف “ .

هذه تعاليم الاسلام في بناء الأسرة وتأسيس الحياة الزوجية على أسس المبادىء إذا أخذ بها عاشت الأسر والجماعات والأُمم في ظلال السعادة بـ وتحت لواء الألفة والمُنة . ولعل في هذا الهدى الاسلامي الحكيم تنبيها وإرشادا لأولئك الشباب الذين يجرون وراء الدُّرِّ بحسب غاظين النظر عن الناحية الأخلاقية يتلمسون من المسادة وحده السعادة الزوجية

والهناء المتزاية ولكنهم لم يظفروا بشئ من ذلك حتى أن الحوادث أرشدتهم أيضا الى أن الزواج الذى يؤسس على المادة وحدها سرعان ما تنقصف العواصف ويهدم بنيانه ؛ وتتداعى أركانه ويكون مصدر شقاء و بلاء على الأسر والجماعات والأُمم .

وكما عانى الاسلام باللبنة الأولى فى الأسرة وأول مدرسة فى المجتمع — سيدة البيت وراعيته — حتى بتربية الأولاد الذين هم رجال المستقبل وموضع رجاء الأمة ومعقد آمالها وقبلة أنظارها ؛ عدة الزمان فأوجب على الوالدين رعاية الأولاد رعاية تامة وكفالتهم كفالة رشيدة ؛ وتربيتهم تربية فاضلة . وتفتشتهم تفتشة كريمة حتى يشبوا على طراز عال من النصح والعقل والخلق الكريم . وفى ذلك سعادتهم وسعادة المجتمع الذين سيعيشون فيه وأن أمثل الطرق وأقومها فى تربية الأولاد وتهذيبهم أن يكون الوالدان قدوة حسنة لأولاد الأولاد . وأن يكون كل ما فى المنزل حسنا فلا يفتح الأولاد عيونهم على قبيح . ولا يسمعوا لغشا من القول ولا يشاهدوا أفعالا مردولة ولا تصرفات منكرة . يقول الله تعالى ” يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا “ ويقول ” وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها “ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم ” ما نحل والد ولدا من نحل أفصل من أدب حسن “ ويقول ” أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم “ ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثل العليا فى تربية الأولاد عمليا . وتفتشتهم تفتشة فاضلة كريمة . فقد حدثنا السنة النبوية أن الحسن رضى الله عنه كان صبيا وأخذ تمر من تمر الصدقة . فجعلها فى فيه فقال له الرسول ” ارم بها أما علمت أنها لا تحل لنا الصدقة “ بهذا التعليم النبوى الكريم نشأ الحسن على معالى الأمور وسمو النفس . وعلو الهمة . والكرم والسخاء . وهذا عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما يتحدث عن تربية الرسول له وارشاده الى آداب الأكل ، وهو غلام صغير . يقول فى ذلك : كنت غلاما فى حجر الرسول صلى الله عليه وسلم . وكانت يدي تطيش فى الصحفة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ” يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك “ فما زالت تلك طعمتى بعد . بتلك التعاليم الاسلامية والارشادات النبوية أخذ المسلمون الأولون أنفسهم بها ، فخرجوا للمجتمع شبابا كان مضرب الأمثال فى الأدب الرفيع ، والخلق الفاضل ، والرجولة الكاملة . فهذا عمر الفاروق رضى الله عنه ، يضع المنهج القويم للتربية البدنية والثقافية . وبث الفروسية والشجاعة فى نفوس الأولاد ، فيقول ” علموا أولادكم السباحة والرمية وخذوهم بقرض الشعر . وصروهم فيثبوا على الخيل وثبا “ . وهذا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يضع النموذج عاليا للتربية الدينية والبدنية والعسكرية ، فيرسل كتابا مطولا الى مؤدب أولاده يقول فيه ” وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يتثبت فى قراءته ، فإذا فرغ تناول قوسه ونبله وخرج الى الغرض حافيا ، فرمى سبعة أرشاق “ . على أن الاسلام يقدر اختلاف الازمنة وتنوع مقتضياتها فى التربية والتوجيه الى ميادين الحياة والاعداد للمستقبل ، فما يناسب زمانا من التربية والتوجيه قد لا يلائم زمانا آخر . لذلك يقول بعض كبار الصحابة : خلقوا أولادكم بغير اخلاقكم ، فقد خفوا الزمان غير زمانكم ، هذه ارشادات الاسلام فى تربية الأولاد وتهذيبهم جسديا ونفسيا وخلقيا حتى يقوموا بوظائفهم فى الحياة خير قيام ، ويسيروا فيها بأقدام ثابتة ، وخطوات موفقة ناجحة .

بقيت ناحية من نواحي سعادة الأسرة وهماها ، تلك هي الناحية المسادة التي لها أعظم الأثر في راحة الأسر وطمأنيتها في حاضرها ومستقبلها ، تلك الناحية عنى الاسلام بها عناية عظيمة فأوجب على الوالد أن يعمل على إسعاد أهله وأولاده . وأن يهيئ مستقبلهم بضمان مالى — إن استطاع — كما يهيئ بضمان خلقى ، حتى لا يكونوا عالة على المجتمع ، وعينا نقيلا يعطل من سيره . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم حاتا على الانفاق على الأهل والأولاد والخدم ” وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة وما أطعمت خدامك فهو لك صدقة “ ويقول ” كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت “ ويقول حاتا الآباء على مراعاة مستقبل أولادهم ” إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس “ وبجانب ذلك كله أراد الاسلام أن يربى الأولاد مستظلين بلواء الألفة والمحبة والتضامن ، وأن يتمتع الوالد برؤس أولاده جميعا وتحققا لتلك الغاية السامية أوجب الاسلام التسوية بين الأولاد فى العطية ، وحرم إثارة بعضهم على البعض الآخر ، فمن النعمان بن بشير رضى الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتى نحت أبنى هذا فلما كان لى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ” يا بشير ألك ولد سوى هذا “ فقال . نعم . قال ” قل اللهم وهب له مثل هذا “ قال . لا . قال ” لا تشهدنى على جور ، أيسرك أن يكونوا اليك فى البر سواء “ قال . بلى . قال ” فلا اذا “ .

هذا هو الاسلام يتولى تنظيم الأسر والبيوت . ويشرف على تكوينها وتأسيسها ، ويضع لنا نظام حاضرها ومستقبلها ، فلو أننا استغرنا بتلك الارشادات ، واهتدينا بتلك التعاليم ، وسرنا على ضوئها ، لكان البيت الاسلامى الآن كالبيت الاسلامى الأول ، نورا وهدى ، وبيئة صالحة ، وخلالا كريمة ، ومدرسة تخرج لنا الكثير من القواد المصالحين ، والعلماء المخلصين والحكام العادلين الرحماء ، والعمال الأوفياء ، والصناع الأمناء ، والجنود البواسل والزوجات المخلصات الفاضلات ، والشباب الأقوياء جسما وخلقا وروحا ، وغير أولئك من يسعد بهم المجتمع ويعتبرهم الوطن ، لو أن كل بيت من البيوت ، وكل أسرة من الأسر اتخذت من الشريعة الاسلامية ضياء ومن هدى النبوة نورا ، ومن القرآن دستورا ، إذن لسعدت الأمة ، وبلغت الذروة العليا فى العلم والخلق والصحة ، وال عمران والحضارة . والقوة والسيادة .

ذلك ما يريده كل محب لدينه ، غيور على بلاده ووطنه ، حريص على سعادة ابنه ، وذلك ما نرجو أن يتحقق على يد وزارة الشؤون الاجتماعية ، التي نثق لها النجاح والتوفيق والسداد فى أداء مهمتها .

محمود ضيفم

الواعظ بالقاهرة